الالم (١)

سلام على الاوجه الزاهره سلام على الشيم الطاهره
سلام على الحسن والمحسنات غصون بجناتهِ ناضره
سلام على الطهر والقائمين بتربيةِ الانفس الطاهره
على كل شهمٍ يرى في الفقير اخاً تحت اطمارهِ الدائره
على الادباء على ذا الاديب (٢) على شاعر العصر (٣) والشاعره (٤)
سلام على الاعين الساحرة سقى جودها الاعين الساهره
سلام على ناصرات الضعيف على جور ايامهِ الجائره
سلام على قاهرات الشقاء سلام على زينة القاهره
سيداتي الكرائم سادتي

الالم موضوعي وكاني اسمع من حولي همساً علام اختار الخطيب هذا الموضوع وهل جاء خصيصاً من الاسكندرية ليثير فينا اشجاناً كامنة ام هو ينتقم لنفسهِ من رئيس الجمعية لانهُ حمّلهُ هذه المشقة ؟ عفواً ما اتيت لاكدر عليكم صفو هذه الساعة واحب شيء الى قلبي الاّ تتحرك شفاهكم بغير ابتسامة السرور وان لا ارى فيكم الاّ نظراً مشرقاً وقلباً مرحاً . واما حضرة الرئيس فاذا حقّ لي عاطفة نحوهُ فهي شكر لا انتقام اولاً لغيرتهِ المتقدة وهمتهِ الشماء وثانياً لانهُ اباح لي الحظ ان ارفع صوتي الضعيف بينكم هذا المساء

فاذا جدتكم عن الالم فلانهُ ناموس عام كالحب يرافق الحياة ويتحكم بها ولقد حاولتُ مراراً ان التمس موضوعاً سواهُ فلم اجد تحت قلمي موضوعاً الاّ هو . وما كانت السهولة لتجذبني اليهِ ولا الصعوبة لتبعدني عنهُ ولكن الواقف امامكم طبيب والطبيب رفيق الالم يختبرهُ في نفسهِ وفي سواهُ وهو في كل خطوة من حياتهِ يشرف على هاوية العذاب البشري فتجذبهُ اليها كما يجذب البحر اليهِ الغواص. وما اللجج على عمقها بابعد غوراً من جراح الانسانية. في هذه الجراح كان غوصي

(١) خطبة القيت في احتفال جمعية القديس جورجيوس في سهن مارس الماضي
(٢) رئيس الجمعية سعادة بك شقير (٣) جبران خليل جبران (٤) مي

والآلات التي وقعت عيناها تضمنها عقداً لهذه الحفلة لانها تذكار لمشروع غايته تخفيف آلام الجراح

يا سادة . عندما قبضت على القلم لاجري في موضوعي شعرت كأن عالماً باسره يهوج في رأسي فلم ادر كيف ابتدىء لان الالم قديم كالخليقة وحكمه مبسوط على الكائنات من كل ذي فكر وكل ذي حياة . والارض والسماء والروح والمادة مسرح دائم للانين والدموع . والانسان سيد المخلوقات الراقي بعقله القوي بعلمه لم ينجُ من سلطة هذا الشبح الهائل وحياته منذ ظهر على الارض سلسلة آلام متصلة الحلقات منذ القدم ايام كان لابساً جلد الحيوان ومن قبلُ ايامَ كان هذا الجلد لاصقاً ببدنه . ولقد قلّبت ماضيهُ بعين التفكر فلم اقع على يوم كان الالم عنه غريباً بل تمثلت في مشاهد من عذابه لم يروها هوميروس من مصارع جباروته ولم يحلم بها ملتون بين اشباحه وشيومه ولم يخطها دانتي على ابواب جحيمه . فرايت اعياده في رومة اشد هولاً من المآتم تتصاعد فيها نحو الآلهة حشرجة المتصارعين ممزوجة بزئير الوحوش وبخار الدماء . ورأيتهُ في سبارتا اذل من الانعام تساق للذبح منذ نبي الجلد والذبح بلا اثم ولا حرج . وفي مصر يمشي صفوفاً تحت اثقال الاحمال تضرب المعول في الارض وبناء الهياكل والاهرام . وفي الهند يحيى مئتين مليون من الرقاب لنشأة من البراهمة تتحكم بهم كما تشاء . وسمعت صفصلة الحديد تحضر بها نحو الشرق سيولُ الصليبيين عابثة بالبرد والجوع والحمى والموت . ولم تغب عني ثوراته الداخلية وحروبهُ الاهلية . والى جانب ذلك مجاعات هائلة اشد فتكاً من الحروب وامراض وبيلة اشد فتكاً من المجاعات والهة لا ترحم ولا تشبع اشد فتكاً من الامراض

ثم تجلت لي صور الافراد الذين تألموا في سبيل الفكر او المبدإ او الدين فبدا سقراط والسم على شفتيه وكاتون والخنجر في جنبه . وكولومبوس وفي يده هدية العالم الجديد وفي رجليه سلاسل من حديد . وظهر لي دانتي من اعماق الظلمة التي يسمونها المنفى وغليلي من اعماق الظلمة التي يقال لها السجن ورأيت جان دارك على المحرقة ولافوازيه تحت المشنقة وسمعت زئير دانتون ونشيد اندره شانيه ولم تنسَ ذاكرتي ما اصاب بشار بن برد بامر المهدي وعبد الحميد الكاتب بامر الفتح وعبد الملك بن ابريات بامر المتوكل . ومن فوق هذه الصور

والاصوات التي آت من صفاف الكنج تردده غابات الهند الازلية : تماً للشاب الذي يغلبه الهرم . تماً للصحة التي تهدمها الامراض . تماً للحياة التي يفنيها الموت

واليوم بعد ان بلغ الانسان من ارقي ما بلغ وفضّ من اسرار الكائنات ما فضّ وقبض على عنان الجو واستولى على زمام الامواج وحق له ان يفتخر ويباهي بما اقام من معاهد الاحسان ودك من صروح الاستعباد وقطع من سلاسل الرق وخفف من صولة الامراض لم يقوَ على خلع نير الالم القديم كأنهُ ارث خالد ينقلهُ الآباء الى الابناء وتدفعهُ الاموات الى الاحياء . بل هو يستثمر ذلك الارث بما يخلق لنفسهِ من المشاكل ويقيم في طريقهِ من العثرات ويبدد في وجههِ من سبل الراحة والسلام . لا اتكلم عن الحرب فهي اشبه شيء بالبراكين التي تثور في الارض فتقلبها ظهراً لبطن وتفتح فيها لججاً وتطمر منها جبالاً ويبقى شكل الارض كما كان

ولو ان الانام خافوا من العقبى — لما جارت المياه الدماء

ولكن ثمت في جسم الاجتماع الم عميق واضطراب خفي يشعر بهِ كل انسان ولا ينقه لهُ كنهاً . داء يشكو منهُ الكبير والصغير والغني والمعدم والقوي والضعيف . فالانسانية تتعذب على الرغم من رقيها والعالم المتمدن كباحة مستشفى يملأ الجو انين مرضاهُ . سر من بلد الى بلد فطف بالبيوت واقرع الابواب وسل عن ابنائها اين مقرهُ فلا تجد من يعطيك جواباً شافياً . ادخل المستشفيات والسجون بيوت اللهو والصلاة . الاكواخ بلا سقوف والقصور مفروشة بالدمقس والحرير . زر المصانع وزر الضياع من ابن عشر الى خمسين فترنّ في اذنيك انيناً سرت شكوى الفيلسوف « الذباب يفترسهُ العنكبوت والانسان يفترسهُ الالم » الفقير غير راضٍ لانهُ لا يرى في شرائع الارض ما يحلل فقرهُ والغني غير مطمئن لانهُ يشعر بتهديد خفي منصوب فوق رأسهِ كالسيف . والامم كالافراد فانقسام في الرأي وامتناع عن العمل وفوز للاكثرية لا ينفع وخيبة للاقلية لا تطول واضطهاد من اجل الجنس واضطهاد من اجل العقيدة وحقد عند العمال وبغض عند المستخدمين . والنفاق عام في كل مظاهر الاجتماع في السياسة وفي الادب في التجارة وفي التعليم في الزواج وفي الدين

ايها السيدات والسادة

بعد هذه النظرة العامة التي القيتها على الم الاجتماع حان لنا ان نتساءل ما هو الالم وما هي الغاية منهُ وهل يبقى داء الحياة المتقد يجري الدموع فلا تقوى على اطفائهِ والدماء فلا تهتدي الى شفائهِ ؟

ما هو الالم ؟ سؤال لا يسهل الجواب عنهُ . قيل ان « بسيكه » Psyché استرجت يوماً مصباحاً واقتربت من كوبيدون Cupidon لتتحقق من هو فسقطت من قنديلها نقطة زيت على الطفل النائم فستيقظ مذعوراً وفرّ ولم يتسن لها ان تعرفهُ

اما اليوم فقد تسلل على الفزيولوجيا المصباح من يد « بسيكه » ودنا من الحب فتهم بعض خفاياهُ فلنقترب نحن من الالم على نور هذه المصباح علنا ندرك شيئاً من اسرارهِ وبما ان الالم صورة الحياة فلندخل اعماق الحياة ولنرجع الى ابسط صورها لنرى هل الالم اصيل فيها او هو عارض عليها

اسمحوا لي هنا ان اطوي جناح الشعر قليلاً واهبط من فضاء التصور الى حقيقتي المادة وادعوكم الى مرافقتي في هذه الطريق المظلمة بين ضيقات الانسجة وانا اعدكم وعد حرّ ان السفرة تكون قصيرة نخرج منها بعد قليل الى الهواء المطلق ونور الشمس الساطعة

الكائن الحي نباتاً وحيواناً مؤلف من مادة اولى يقال لها بروتوبلاسما . حوت البحر وطير السماء وحشرات الارض وديدان المقابر ونرجس الرياض ونرجس العيون مركب منها فما تكون يا ترى هذه المادة العجيبة التي تتكون منها الازهار المختلفة الالوان كما تتكون الشجرة العظيمة . التي تخلق المكروب الذي لا يرى كما تخلق الاسد والفيل التي شيد عليها هيكل الانسانية الدقيق البناء وجملتكن يا سيداتي ملكات الخليقة ؟

الجواب عند الكيماويين وهو لا يغنيكم فاضرب عنهُ صفحاً واستعين معكم بالمكروسكوب لاستطلاع اسرار الحياة

اذا اخذنا قطعة صغيرة من الجسم ونظرنا اليها من خلال الآلة المكبرة بدا لنا مشهد عجيب غريب ! عدد هائل من اجساد صغيرة متراكمة يعضها فوق بعض

طبقات وصفوفاً . وكل جسم من هذه الاجسام مؤلف من المادة الاولى التي ذكرتها لكم مع غلاف رقيق من حولها وكتلة كروية الشكل في وسطها . وهذا ما يقال لهُ الخلية والى اليوم لم يعرف العلم جسماً اصغر من الخلية يجعلهُ قاعدة البناء في هيكل الحيوان والنبات . بل من الكائنات الحية ما هو مركب من خلية واحدة

في هذه الخلية تجري اعمال الحياة كما في جسم الانسان . نعم ليس هناك معدة تهضم ولا رئة تتنفس ولا قلب يخفق ولكن فيها كل ما يلزم للحياة فتراها تحت المكرسكوب تتمدد وتتقلص فتمتص غذاءها مما يجاورها وتهضمهُ في جوفها وتلفظ فضلاتهِ الضارة

تلك هي الحياة في ابسط صورها ثم بواسطة شعور خاص يقال لهُ الاتصال فالاتصال اساس الوظائف العصبية وهو الالم في ادنى مظاهره . هو الالم وخير الالم لان الخلية لا تملك من الشعور سواهُ ولكن كلما ارتقى الحي في بنائهِ ارتقى الجهاز العصبي في تركيبهِ الى ان يصير الالم في الانسان المآ مستقلاً واضحاً

هلموا بنا ايها السادة فقد طال وقوفنا في هذه الظلمة واخاف ان اخلف وعدي معكم فلنخرج الى النور ولنصعد مسرعين نحو الانسان غايتنا من هذا البحث . ولا ننسَ ان نرسل في طريقنا تحية وداد الى المخلوقات العديدة التي سبقناها في سلم الارتقاء ولكنها نالت نصيبها من الشعور فذاقت مثلنا ألم البقاء . لا اتذكر اين قرأت ان البلبل هذا الطائر الغرّيد الذي لا يرى فيهِ الشعراء الاَّ عاشقاً ومغنياً الحامل بين جنبيهِ قلب جميل وروميو وعود اسحق وموزار لم يكن غناؤه الاَّ صراخ ذعر والم ينفض بهِ الجو ليسعد الطير المفترس عن فراخهِ . وسواء صح هذا ام لا فلا ريب ان العصفور يتألم وصوتهُ لا يدلك على مبلغ المهِ ولكن

شجا قلب الخلي فقيل غنّى وبرّح بالشجي فقيل ناحا

وبالامس رأيت مشهداً لم تملك من السجود امام عظمتهِ . لبوة واسد . اللبوة ترضع جروها والاسد الى جانبها رابض فجاء الرجل ونادى الاسد باسمهِ فنهض متثاقلاً ثم نادى اللبوة فلبت نداءهُ وبقي الرضيع على الارض وحدهُ فلما رأى الاسد ذلك لما رأى ابو الاشبال جروهُ متروكاً وقد قطع عليهِ غذاؤهُ خرج من صدرهِ صوت لا اعلم انهُ أنة حزن ام زئير غضب ولكن اللبوة فهمتهُ حالاً

فعادت الى حروها غير مكترثة لنداء الرجل وغضبه وعاد الجرو الى الرضاعة وعدت انا اردد في نفسي : ما اعظم الالم حتى في الحيوان الاعجم

والآن قد وصلت الى قلب موضوعي فلا احاول تعريف الالم فلسفةً لانه ليس فيكم من لم يعرفهُ بالاختبار ولا اصفهُ طبًّا لئلاَّ اجعلكم تشعرون به هنا المساء حسبي ان اقول ان الالم صراخ في الاعصاب وصراخ العواطف . الاعصاب تطلب دمًا صافيًا وما اليه من سبيل والعواطف تطلب الفوز بنعمة الرضى وما يرضي بها الاَّ القليل

قلت صراخ الاعصاب لان الالم نوع من تسمم العصب ناتج عن تهيجهِ ولو كان في الامكان ان لا يتطرق الى الجسم خلل في الوظائف والاعضاء لكانت تجري الحياة بسلام دون ان تحدث الماً نعم هناك شعور مختلف كالجوع والعطش والنعاس ولكنهُ لا يؤلم اذا سدت حاجتهُ كما ان كل شعور اذا طال او اشتد ازعج وصار الماً كالصوت القوي الذي يدوي في الاذن او النور الساطع الذي يبهر العين . وما التعب الذي نشعر بهِ بعد المشي الطويل الاَّ تسمم بفضلات الاحتراق وقس عليهِ سائر الاعراض والامراض

وقلت صراخ العواطف لان الالم المعنوي يرافق المادة وربما كان اشد وطأةً منهُ . عواطف الانسان التي قال عنها بيرون انها كالبحر في مدهِ وجزرهِ وارتفاعهِ وانخفاضهِ هي علة شقائهِ ومصدر عذابهِ ولا يسمح لي الوقت القصير أن اعددها لكم فهي تاريخ الانسان على الارض ورواية آلامهِ الخالدة فالخوف والطمع واليأس والغضب والحزن والفرح والبغض والحب امواج القلب البشري المتلاطمة على صخرة الحياة تبعث منها حينًا رشاش اللذة وحينًا رشاش الالم . ولو امكن الانسان أن يتجرد من احساسهِ لخفت وطأة العيش عليهِ كما قال الشاعر

ما اطيب العيش لو ان الفتى حجرُ

ولهذا كان الالم ابلغ في الامم الراقية منهُ عند المتوحشين

وهم كلٌّ على مقدار همتهِ ولا همومَ لقومٍ ما بهم همُ

حتى الم المادة فان من الجنود قبائل تمرز الزجاج المكسر في ارجلها ولا تحس

وفي الامم الراقية نفسها يختلف الناس لدى الالم فالذكي يتألم اكثر من الخامل على حد ما قال المتنبي

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وبحو الجهالة في الشقاوة ينعم

والمنصرف الى الاعمال العقلية يتألم اكثر من سواه . من اجل ذلك كثر الالم بين الكتبة والمصورين والشعراء وكان ابلغ هؤلاء اكثرهم آلاماً قال شاعر الفرنسيس

وارق ما نظم الهوى ... اوحى به اليأسُ العميق

ومن الاغاني خالداتٌ ... كل ما فيها شهيق

وقد اختلف العلماء في اي الاثنين اقدر على احتمال الالم المرأة او الرجل فادعى بعضهم ان المرأة اقل احساساً من الرجل وايّد ذلك باختبار طبي لا محل لذكره هنا. وانا وان كنت لا اوافق على هذه الدعوى فاني لا اتكدر اذا صحت لانها تكشف لي ذلك السر الغامض الذي به استطاعت المرأة ان تمشي في صحبة الرجل هذا الزمان الطويل محتملة منهُ الغطرسة والكبرياء وسوء الظن واستبداد الرأي وحب السيادة والتحكم

وكيف انكر الم المرأة وقد رأيتها امام سرير المريض مثال الصبر والاخلاص وانكار الذات . تضحي في سبيل عطفها وحنانها كل راحة وتنسى كل لذة . تنسى جمالها ولهوها واهم شيء تعيش لاجلهِ اي الزينة وتحصر افكارها في السرير الذي امامها والمريض الملقى عليهِ تهزهُ في يقظتهِ وتسهر عليهِ في نومهِ تترصد منهُ كل حركة او انة او تنفس لتنهض الى خدمتهِ فاذا شكا اجابتهُ بابتسامة واذا بكى جبت دموعها وتظاهرت بالسرور والشجاعة فكانت آلامها في الحقيقة لا تقل عن آلامهِ

والالم سواء في الرجل او المرأة يشتدُّ في الشاب ويخف في الكبر حتى ان الجرّاح يستطيع احياناً ان يعمل مشراطهُ في الشيوخ من غير ان يحتاج الى تخديرهم. وقد تحدث بهم بعض الامراض المؤلمة كالمغص الكبدي مثلاً فيحتملونها بسهولة يضيع معها الطبيب في تشخيصهِ

واما الطفل الوليد فالمهُ غامض ومع ذلك فقد وجد بين الشعراء من اثار بكاء الطفل قريحتهُ وها انذا اتلو عليكم ابيات ترجمتها فيما مضى عن مسز برونتغ الشاعرة المشهورة

بكاء الاطفال

هل سمعت الاطفال يا صاح تبكي قبل ان تعرف الاسى والشقاء
كل طفل في حضن من ولدته يتعزى لو كان يرضى العزاء
العصافير في الرياض تغني وثناء الظباء يحكي الغناء
وابتسام الازهار كل صباح بشذاها يعطر الارجاء
انما الطفل وحده يا صحابي بات يبكي ويستهل البكاء

***

هل سألت الطفل الصغير لماذا راح يبكي ودهره ما أساء ؟
يذرف الشيخ دمعة الشباب ضيع الصبر فقده والرجاء
وغصون الاشجار تحزن اذ — تخلع ايدي الخريف عنها الرداء
وجراح الابدان تؤلم ان قصّر — طول الزمان عنها الشفاء
انما الطفل وحده لست تدري ما الذي في البكا لهُ يتراءى

***

ان في ادمع الصغار لسرًّا لثمتهُ ارواحها الشعراء
ارسلتها غربة ونحن صغار ولنا ارجل تحاكي الهواء
ما مشينا عليك يا ارض الا خطوات وقد سقطنا عياء
فمتى نستريح والقبر نأوٍ ومن العمر ما يطيل العناء
فلو الشيخ ما الذي منهُ يبكي لا صغاراً في ارضهم غرباء
راحة القبر للشيوخ ولكن نحن جئنا هنا نقاسي البقاء

وما اقرب هذا المعنى من قول الشاعر العربي

لما تؤذن الدنيا بهِ من شقائها يكون بكاء الطفل ساعة يولدُ
والاَّ فما يبكيهِ منها وانها لاوسع مما كان فيهِ وارغد
اذا بصر الدنيا استهل كأنهُ بما سوف يلقى من اذاها يهددُ

ستأتي البقية الدكتور نقولا فياض